التباين التعبيري بين دعوة النبي لوط (عليه السلام) ودعوة الأنبياء لأقوامهم، دراسة في ضوء اللسانيات النفسية

فضيلة عبد العباس حسن الأسدي[1]، زهراء محمد قاسم كامل[2]
كلية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، جامعة الكوفة – العراق
1-fadheela.alabbas@uokufa.edu.iq
2-Zakih.asadi@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56807/buj.v5i1.354

الملخّص

إنّ القرآن الكريم لم يذكر قصص جميع الأنبياء من بداية إرسالهم إلى أقوامهم؛ وذلك لأنه لا يذكر حدثا إلا لعبرة معيّنة، أمّا الذين ذكر قصصهم من بداية الدعوة الإلهية فهم نوح وهود وصالح و إبراهيم وموسى ويوسف وشعيب وعيسى ومحمد صلى الله على نبينا وآله وعليهم، وقد اشتركت تعابير بعضهم في عدّة جوانب، واتسمت دعوتهم باللين الكلامي والودّ لتقريب أنفس الأقوام إلى الرسالة السماوية التي كان أساسها الدعوة إلى التوحيد، واختلف كلام النبي لوط عليه السلام لقومه؛ لاختلاف الهدف واختلاف المقام؛ لذا تهدف هذه الدراسة للوقوف على أوجه الاختلاف وأسبابه، وعلاقة الانفعالات بكيفية التعبير عن الأفكار المراد إيصالها إلى المتلقّين، ومن النتائج التي توصّل إليها البحث أنّ النبي لوط عليه السلام لم يدعُ إلى التوحيد فحسب، بل اتّسمت دعوته بالشدّة والانفعال، وذلك لاختلاف مقام قومه عن بقية الأقوام، ولاختلاف المقام اختلف المقال، وقد أفاد الباحثان في دراستهما من علم اللغة وعلم النفس، والمنهج التداولي الذي يستلزم ترابط المتكلم والسياق والمخاطب المتلقي للكشف عن السلوم اللغوي ونوع التفكير من قبل المتكلم للمخاطب بمعاونة السياق.

الكلمات المفتاحية: اللغة الهادئة، اللغة الانفعالية، الغضب، التعجّب، الإنكار.

Abstract

The Holy Qur'an did not mention the stories of all the prophets from the beginning of their sending to their people. This is because he does not mention an event except for a specific lesson, as for those whose stories were mentioned from the beginning of the divine call, they are Noah, Hud, Salih, Abraham, Moses, Joseph, Shoaib, Jesus and Muhammad (may God bless our Prophet, his family and them)

The expressions of some of them shared several aspects, their call was characterized by verbal calmness and friendliness to bring people's souls closer to the heavenly message, the basis of which was the call to monotheism.

The words of the Prophet Lot (peace be upon him) differed to his people. Because of the difference in the goal and the difference in the position, so this study aims to find out the aspects of the difference and its causes, and the relationship of agitation with how to express the ideas that are intended to be communicated to the recipients.

Among the findings of the research is that the Prophet Lot (peace be upon him) did not call for monotheism, but rather his call was characterized by intensity and agitation, due to the difference in the position of his people from the rest of the peoples, and because of the difference in the position, the saying differed.

Keywords: *calm language, emotional language, anger, wonder, denial.*

المقدّمة

الدعوة إلى التوحيد في العبادة هي مفتاح رسالة كلّ نبي مُرسلٍ، وكانت دعوتهم (عليهم السلام) متّصفة باللين الكلامي والودّ لتقريب أنفس الأقوام إليهم، ولكن بالرجوع إلى قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم نجد أنّ أحد الأنبياء لم يدعُ القوم إلى التوحيد، ولم تتّصف دعوته الكلامية باللين، وهو لوط عليه السلام؛ لذا تهدف الدراسة إلى عرض الجوانب المشتركة في تعابير دعوة الأنبياء عليهم السلام، ثمّ بيان فرق دعوة النبي لوط عليه السلام عن دعوتهم، عن طريق تحليل الاستجابات الكلامية للأحداث المثيرة تحليلاً لسانياً نفسياً.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن يعرض تعريف اللسانيات النفسية والمرور بنشأتها والفرق بينها وبين علم النفس اللغوي، والتعريف بمفهوم (الدَّعوة)، ثم يذكر التعابير المشتركة في دعوة الأنبياء، ويعقبه التفصيل في تحليل استجابات النبي لوط الكلامية، وتباينها عن كلام الأنبياء، وتنتهي الدراسة بخاتمة لذكر أهم النتائج، يليها قائمة المصادر والمراجع.

1- اللسانيات النفسية

تنقسم اللسانيات على فرعين أساسيين: (عامة، وتطبيقية)، ويشتمل كل منهما على فروعٍ عدّة، أمّا الأوّل فيختص بدراسة اللغة بحدّ ذاتها، أمّا التطبيقية فتستفاد من نتاج العلوم المرتبطة باللغة، فتُعرف فروعه بالعلوم البَيْنِيَّة، إذ يعرف بأنّه: "...علم متعدد الجوانب، يستثمر علوم أخرى كثيرة تتصل باللغة من جهة ما؛ لأنّه يدرك أنّ تعليم اللغة يخضع لعوامل كثيرة: لغوية، ونفسية، واجتماعية، وتربوية." (الراجحي، 1995م، 2) فظهرت اللسانيات النفسية، والاجتماعية، والرياضية (يُنظر: عمر، 1998م، 250)، وغيرها من العلوم اللغوية المركّبة.

أمّا اللسانيات النفسية فإحدى علوم اللسانيات التطبيقية، التي تُظهر إمكانية اللغة في ربط علمين مستقلين، أو الكشف عن علاقتهما، وهما (علم اللغة وعلم النفس)، "فإذا كان علم النفس يعنى بدراسة السلوك الإنساني عموماً فإنّ دراسة السلوك اللغوي تُعدّ أحد جوانب الالتقاء بين علم اللغة وعلم النفس" (حجازي، د. ت، 48)، فنظر بعض العلماء إلى هذه العلاقة نظرة لغوية نفسية، وقد ذكروا لها تعريفات عدّة "...تتفق على أنّ علم اللغة النفسي علم يهتم بدراسة السلوك اللغوي للإنسان، والعمليات النفسية العقلية المعرفية التي تحدث في أثناء فهم اللغة واستعمالها..." (العصيلي، ٢٠٠٦م، 27)، ويهتم بدراسة التغيرات التي تحدث للفرد حين استعماله للغة، وتحليل استجابته الكلامية على أساس مبادئ ونظريات علم النفس (يُنظر: بولعراس، 2009م، 94 – 95)، ويعرفها الدكتور علي عبد الواحد بأنّها: "...دراسة العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها، وبيان أثر كل منها في الآخر." (وافي، 2004م، 59).

فالكلام الإنساني هو الرابط بين اللسانيات وعلم النفس، لإمكانية معرفة شخصية المتكلم وأفكاره وصفاته الخُلقية عن طريق كلامه، والذي يُعد "...خير وسيلة للتعبير والإبانة والوضوح، وخاصّة بالنسبة للموضوعات الجادّة...والعواطف الكامنة في النفس الإنسانية، التي تنتظر الكلمة لبيانها والإفصاح عنها بوضوح وجلاء..." (إمام، د. ت، ١٦٧)، ومن الصعب أن يكتم الفرد أفكاره؛ لأنّها تظهر في كلامه، إذ يقول فيلسوف صيني: "راقب أفكارك؛ لأنّك ستعبّر عنها بالكلمات. وراقب كلماتك؛ لأنّك ستطبقها كأفعال..وراقب أفعالك؛ لأنّها ستصبح عادات تصنع شخصيتك.." (الأحمدي، 2020م، 2/ 159)، فصاحب الأفكار الإيجابية له شخصية إيجابية، والعكس صحيح.

نشأتها

تتابعت سلسلة من الأحداث حتى ظهور اللسانيات النفسية بوصفها علماً مستقلاً، ويرى العصيلي بأنّها تبدأ من دي سوسير، إذ يرى أن جوهر اللغة نفسي (سوسير، د. ت، ٢٤)، وقد دعا إلى دراسة اللغة من الجانب النفسي المعرفي مروراً بنشأته حين تأثر بلومفيلد بآراء علماء النفس السلوكيين، ومنهم سكنر _العالم النفسي السلوكي_ الذي يفسر اللغة "...بأنّها سلوك آلي، تكتسب بطريقة حسّيّة آليّة كما تكتسب الجوانب الأخرى من السوك الإنساني..." (العصيلي، 41)، وعلى ضوئها يرى بلومفيلد ومن أيّده بأنّ اللغة "...ما هي إلا مظهر من مظاهر السلوك الإنساني الآلي الخاضع لقانون المثير والاستجابة دون ارتباط بالتفكير العقلي" (العصيلي، بحث منشور 1419هـ، 328- 329)، وبذلك أبعد المعنى، وتناول ظاهر اللغة، ثم ارتباط اللسانيات النفسية بعلوم أخرى، وحتى استقلالها في أواسط القرن العشرين على أثر آراء تشومسكي ونظريته (النحو التوليدي) (يُنظر: العصيلي، 38- 53)، إذ كانت شيئاً واحداً مع علم النفس اللغوي.

وتعود أوّل المحاولات في اللسانيات النفسية إلى (ديتريش تيدمان) الفيلسوف الألماني إذ قام بتسجيل ملاحظات عن تعلم ابنه للغة، وتبعه بالجانب التجريبي (فرانسيس غالتون) العالم النفسي البريطاني، وهو "...أوّل من ابتكر تجارب لغوية نفسية..." (أتكيسون، د. ت، 486) في نهاية القرن الثامن عشر (يُنظر: نفسه، 485- 486)، من دون أن يصطلح عليها بعلم كذا.

فقد "...قامت الدراسات اللغوية على أساس أنّه فرع من الفلسفة، أو فرع من علم النفس، أو فرع من الانثروبولوجيا الاجتماعية..." (السعران،1963م، ١١)، وهكذا دُرست الجوانب النفسية للغة في علم النفس اللغوي (العصيلي، 28)، وعلى أثرها تتطور البحوث اللغوية النفسية وصولاً إلى

تشومسكي، وتكوين فرعٍ نفسيٍ في علم اللغة تغلب عليه الجوانب اللغوية يعرف بعلم اللغة النفسي (يُنظر: حجازي، ٥٠) اللسانيات النفسية.

ويتّضح الفرق بين الفرعين بالرجوع إلى الموضوعات الخاضعة للدراسة في كلّ منهما، فضلاً عن أهدافهما واهتماماتهما، "فمجال الدراسة النفسية للغة هو كيفية تحويل المتحدث للاستجابة إلى رموز لغوية to eneode، وهذه عملية عقلية تتم عند الإنسان." (نفسه، ٥٠)، تنتظرها عملية نفسية أخرى يقوم بها السامع بعد وصول تلك الرموز إليه، وبين العمليتين النفسيتين عملية لغوية تتمثل بإصدار الصوت ونقله، وصولاً إلى أذن السامع (عطية، 1995م، 22-23)، وإذا استمر التواصل اللغوي بشكل صحيح، تبقى العمليات النفسية ضعف العمليات اللغوية.

إنّ تبيين العلم الذي يدرس أيّة عملية يوضّح أنّ الاستجابة على الرغم من كونها "...من أكثر مصطلحات علم النفس شيوعاً واستخداماً." (طه، د.ت، 45) إلا أنّها تكون في حيز علم اللغة النفسي إذا كانت كلامية.

ويمارس الإنسان عادة مع من حوله عمليات تواصلية كلامية، فيخلق المتكلّم حدثاً كلامياً لنقل رسالة معينة للسامع، ولا تتحقق العملية التواصلية إلا بوجود "...متحدث أو مرسل، وسامع أو مستقبل، ورسالة يرسلها المتحدث إلى السامع..." (العصيلي، 183) فتُدرس بالنظر إلى عمل المتكلّم (إنتاج اللغة)، وعمل السامع (استقبال اللغة)، وما بينهما من عملية انتقال اللغة (يُنظر: حسان، د. ت، 51) في وسطٍ فيزيائي، أو ما يقوم مقامه.

على أنّ العمليتين "...الإنتاج والسماع متساويتان من ناحية الأهمية للغة؛ لأنّ اللغة إذا قُدّر لها أن توجد فلابدّ لها من شخصين متّصلَين على الأقلّ، ولابدّ أن يقصد بالكلمة أن تكون مسموعة..." (نفسه، 51)، والذي يهمّ اللسانيات النفسية هو المنتوج الكلامي الذي يصدره المتكلم في صورة استجابة كلامية – ردّة فعل كلامية – لأحداث أثارت فكره واهتمامه.

أمّا دعوة الأنبياء أقوامهم في القرآن الكريم فقد وردت في صورة مجموعة من الأحداث الكلامية، وأيُّ حدث كلامي قائم على ثلاثة عناصر: (المتكلم، والفكرة التي يريد نقلها، والسامع)، وقد يكون كلام المتكلم مثيراً آخر يدفع السامع إلى ردة فعلٍ معيّنة (يُنظر: أولمان، د. ت، 19)؛ فالكلام "...دليل على الحالة العقلية للمتكلم، ورمز للرسالة، وتنبيه للسامع" (أولمان، 20)، ودعوة الأنبياء عليهم السلام هي رسالة يُراد بها تنبيه أقوامهم على الجهل الذي هم فيه، ودعوتهم إلى التوحيد.

- مفهوم الدَّعوة

في اللغة (الدَّعوة) بفتح الدالّ من الجذر الثلاثي "(دَعْوٌ) الدَّالُ وَالعَيْنُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْ تُمِيْلَ الشَّيْءَ إِلَيكَ بِصَوتٍ وَكَلامٍ يَكُونُ مِنْكَ" (ابن فارس، ١٩٧٩م: 2/ 279)، وفي الاصطلاح الدعوة إلى أي شيء يقصده الداعي، سواء إلى الطعام (يُنظر: الكفوي، د. ت، 1/ 447) أو الدين أو الطاعة، وغيرها.

2- الجوانب المشتركة في كلام الأنبياء (عليهم السلام):

الأنبياء عليهم السلام تتشابه دعوتهم الكلامية في المواقف المتماثلة في القرآن الكريم، فمن تلك الكلمات التي قالها الأنبياء في صورة هادئة ما يأتي:

أولاً: الدعوة إلى التوحيد: وهي "...مفتاح دعوة الرسل..." (علي، د. ت، 53) بدءاً من نوح عليه السلام وانتهاءً برسول الله محمد صلى الله عليه وآله، أمّا الأنبياء الذين دعوا إلى توحيد الله – عزّ وجلّ – وذُكِر كلامهم في النصّ القصصي للقرآن الكريم فهم:

– نوح (عليه السلام)، قال تعالى: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿25﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ...}** [هود: 25 ــ 26]، وقوله تعالى: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...}** [الأعراف: 59].

– هود عليه السلام، قال تعالى: **{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ...}** [الاحقاف: 21].

– صالح عليه السلام، قال تعالى: **{وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...}** [الأعراف: 73].

– إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: **{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ...}** [العنكبوت: 16]، هذه دعوة عامة، وقد سبقتها دعوة خاصّة دعا فيها النبي عليه السلام عمّه (آزر) بدافع ردّ الجميل الذي أثاره حدث تربية العمّ له، فكان لآزر "...على سيدنا إبراهيم حقّ الأبوّة" (الشعراوي، 1997م، 10/ 6106)، فدعوته عليه السلام عمّه يمثّل تطبيقاً لقانون التبادل – الأخذ والعطاء – في علم النفس، والذي ينصّ "...على أنّ المعروف يجب أن يردّ بمعروف..." (روبرت، ٢٠١٠م، 70)، وبما أنّ العمّ لم يستجب للدعوة بالقبول فهو يُعدّ مكروهاً؛ لأنّه منع المتلقّي للمعروفِ بردّه، فـ "...الذين ينقضون قانون التبادل بالاتجاه المعاكس – بالإعطاء دون منح المتلقي الفرصة لردّ الجميل – مكروهون...بسبب ذلك" (روبرت، 313)، وبالنتيجة تنتهي علاقة إبراهيم عليه السلام بآزر؛ لأنّ العلاقات البشريّة تقوم ما قام المعروف يتبادل بينهم (يُنظر: بوير، 2002م، 79)، ويهاجر عليه السلام إلى الشام.

– يوسف عليه السلام، قال تعالى حكاية عن النبي يوسف عليه السلام: **{مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...}** [يوسف: 40].

– شعيب عليه السلام، قال تعالى: **{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...}** [الأعراف: 85]، وكذا قوله تعالى: **{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...}** [العنكبوت: 36]، ينبغي الإشارة إلى أنّ دعوة النبي شعيب عليه السلام لم تقتصر على التوحيد، بل شملت الأمر والنهي عن أمورٍ تمسّ صميم معيشة القوم، قال تعالى: **{...فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿85﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا...}** [الأعراف: 85 - 86]، فأمرهم بإيفاء حقّ الناس في الكيل والميزان وغيرها من الأوامر والنواهي (يُنظر: الشيرازي، ١٩٩٣م، 5/ 102-104) التي تعدّ محاولة لتغيير أسلوب عيشهم؛ ليتغير على أثرها تفكيرهم، يقول المثل الغربي: "غيّر معيشة الإنسان يتغيّر بذلك تفكيره" (الوردي، 1997م، 54)، فإن لم يكن العدل في الميزان صفة القوم إلا أنّهم بتمثيل دور العادل يجعلون صفة العدل حقيقة فيهم (يُنظر: بونو، 2001م، 27)، لكن القوم لم ينفذوا الأوامر، ولم يكفّوا عن النواهي.

– عيسى عليه السلام، قال تعالى: **{...وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...}** [المائدة: 72].

– رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، قال تعالى حكاية عن رسوله: **{أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ}** [هود: 2].

وهناك أنبياء ذُكروا في القصّة القرآنية من دون الإشارة إلى دعوتهم إلى التوحيد، كالأنبياء: إسحاق، وإسماعيل، وأيوب، ويونس، وداود، وزكريا عليهم السلام.

أمّا النبي لوط عليه السلام فأُرسل بأمر من الله نبياً مكلّفاً بمهمّة إصلاح قوم ليس منهم، والذين شاع خبر إتيانهم الذكور من دون النساء (يُنظر: ابن كثير، 1997م، 243)، فكانت مهمّة لوط عليه السلام "...إبلاغه إياهم رسالة ربّه بتحريم ذلك عليهم..." (الطبري، 2000م، 12/ 551)، وهذا لا يعني أنّه عليه السلام لم يدعُهم إلى توحيد الله إلا أنّ استجابة النبي الكلامية تقتصر على ما كان يعمل القوم.

وبالرجوع لكلام الأنبياء عليهم السلام يتّضح اتصاف كلامهم بالعظمة؛ ذلك لأنّهم عظّموا المثير الأساس المتمثّل بإرسال الله إياهم إلى أقوامهم؛ فبتعظيم المثير تُعظَّم الاستجابة (يُنظر: الوردي، 135)، كما أنّ النداء بـــ (يا قوم) كان ليناً؛ بهدف جذب أنفس الأقوام، فضلاً عن دلالة الإلزام في أفعال الأمر والنهي (اعبدوا، ولا تعبدوا)، ففي الخطاب لين وإلزام.

ثانياً: إعلان الخوف على القوم: كلام الأنبياء عن خوفهم على أقوامهم تُعدّ محاولة لإثارة الخوف عند القوم، أمّا الأنبياء الذين أعلنوا عن خوفهم على أقوامهم، وذُكِرَت قصصهم في القرآن فهم:

– نوح عليه السلام، قال: **{...إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** [الأعراف: 59].

– هود عليه السلام، قال: **{...إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** [الاحقاف: 21].

– شعيب عليه السلام، قال: **{...وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ}** [هود: 84].

– رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، قال: **{...فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}** [هود: 3].

فهؤلاء الأنبياء عليهم السلام أكثر رأفة من غيرهم؛ لأنّهم أظهروا خوفهم على أقوامهم المخالفين بصدقٍ وإخلاص، وعلى الرغم من اختلاف عدد الأصوات الرخوة والشديدة الواردة في كلامهم إلا انّ صفة الرخاوة واللين هي الغالبة على النصّ؛ والأصوات هي (الياء والألف، والخاء، والفاء، والذال، والظاء، والحاء، والواو) وقد ورد صوت الياء أربع مرات في كلّ جملة؛ ممّا يُظهر غلبة صفة اللين على النصّ، أمّا الأصوات الشديدة فهي (الهمزة، والكاف، والباء، والطاء)، أمّا التوكيد بـــ (إنّ) فلدفع الشكّ في ذهن المخاطب، ومع هذا اللين في الكلام الدالّ على اهتمام النبي بقومه هناك نفوس لا يُرى منها الاستجابة المطلوبة لهذا المثير الكلامي؛ لكفرها بيوم القيامة والعذاب المُعدّ في ذلك اليوم.

ثالثاً: عدم سؤال الأجر المادّي: ذكر القرآن الكريم كلام الأنبياء في عدم طلب الأجر، وهم: الأنبياء نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ورسول الله محمد صلى الله عليه وآله، أمّا التي تتّصف بالهدوء فتقتصر على ثلاثة منهم:

– نوح عليه السلام، قال: **{...فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ...}** [يونس: 72].

– هود عليه السلام، قال: **{يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا...}** [هود: 51].

– رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، قال: **{...مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ...}** [سبأ: 47].

ولم يسأل الأنبياء أقوامهم أجراً؛ لأنّ السؤال يكون من الأدنى إلى الأعلى، وهم عليهم السلام أعلى مرتبة من أقوامهم بوصفهم أنبياء الله ورسله، وبيان عدم السؤال على الرغم من أنّ السائل هو الأدنى "...فهو يجري مجرى الرفق في الكلام واستلطاف السامع به..."(العسكري، د. ت، 37)، فكانت هذه الاستجابات الكلامية لدافع التعجّب والشبهة عند القوم الذي أثاره جهدُ الأنبياء الكبير في سبيل الدعوة من دون طلب الأجر.

رابعاً- ردّ التّهمة: من بين الأنبياء الذين ذكر القرآن الكريم قصّتهم اثنان ردّا تهمة القوم لهما، وهما: نوح، وهود عليهما السلام، فقد أتّهم قوم نوح نبيّهم بالضلال، ورده عليه السلام بقوله: **{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ...}** [الأعراف: 61]، تتكرر هذه الاستجابة مع هود عليه السلام، والفرق أنّه يُتّهم

بالسفاهة، فيقول: {**...يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ...**} [الأعراف: 67]، ففي جواب هود كجواب نوح عليه السلام الكلامي "...الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم – أدب حسن وخلق عظيم..." (الزمخشري، 1403هـ، 2/ 116)، فهذا "...يدلّ على أنّ ترك الانتقام أولى..." (الرازي، 1420هـ، 14/ 301)، وهي نظرة أهل التفسير.

أمّا من وجهة نظر نفسيّة فإنّ لكلّ مثير يستحق الجواب استجابة، فكان على النبيّين أن يردّا التهمة تنزيهاً للرسالة، وهي ردّة فعل عقلية تنسجم والموقف، ولا تهدد مهمة النبي في الدعوة، وإن أراد النبي أن ينتقم فكيف سيكون انتقامه؟!! بإنزال العذاب مثلاً؟!! والنبي في بداية دعوته لقومه يسعى لجلب قلوبهم برفق وبصيرة، لا بالقوّة التي يفرّ منها كلّ ضعيف، فكانت استجابة النبيّين عليهما السلام تدلّ على أنّ كلامهم المثير لا يستحقّ أكثر من ردّةٍ كلاميّة هادئة.

يستنتج ممّا سبق التشابه الكبير في الصياغة اللغوية لكلام الأنبياء عليهم السلام؛ ممّا يدلّ على أنّ تفكيرهم متقارب، وبالنتيجة تكون شخصياتهم متشابهة، كما أنّ الدعوة إلى التوحيد كانت في صورة دعوة مباشرة وجماعية – باستثناء آزر –، كما لا يوحي أسلوبهم في الكلام بانفعال نفسي، بل يدلّ على اللين، وباللين الكلامي حاولوا جذب أنفس الأقوام، فقصدوا بكلامهم عليهم السلام إثارة مشاعر أقوامهم بألفاظ وعبارات محدّدة، مثل: (يا قوم)، و (أخاف عليكم)، زيادة على الأفعال الأمرية التي أعطت دلالة الإلزام لكلامهم.

3- دعوة لوط (عليه السلام)

هاجر النبي إبراهيم عليهم السلام مع أهله، ومن آمن به من قومه بعد أن أمر (نمرود) بعدم بقائه، ولكنّه لم يقم في مدينة أو قرية بعدها، وكانت تبعد عنه قرى مختلفة، والتي منها (سدوم).

قرية (سدوم) مركزٌ لأربع قرىً أخرى (يُنظر: الزمخشري، 281/3)، يذكرها القرآن بـ (المؤتفكات)، و"...كانت على طريق السيّارة إلى الشام ومصر، فكانت السيّارة تنزل بهم فيضيّفونهم..." (الراوندي، 1430هـ، 1/ 319)، إلا أنّ أهل القرى استاؤوا من الغرباء، فبخلوا عليهم، وبما أنّ عدم الضيافة لم تمنع مجيء السيّارة إلى قُراهم قاموا بإيذائهم بأن يفعلوا المنكر بهم، بهدف قطع قدوم الغرباء، ولم يعتد هؤلاء القوم إلى المنكر المتمثّل بإتيان الرجال لولا تعليم الشيطان لهم بحسب ما جاء في الروايات (يُنظر: الراوندي، 319/1)؛ إذ إنّ الإنسان يسير على الفطرة السليمة حتى ينحرف بسبب الشيطان، وبمعونة النفس الأمارة بالسوء.

وتحقّق مراد أهل المؤتفكات في انقطاع مرور السيّارة من أرضهم، بعد أن أغرقوا أنفسهم في قذارة فعلهم، وأصبح إتيان الرجال وترك النساء سنّة حسنة فيهم، فالدافع الجنسي سبّب لهم "...الانحراف الجنسي، وهو الجنسية المثلية..." (نجاتي، 2001م، 67)، فبقي القوم على سلوكهم على الرغم من عدم وجود السُّياح.

فأُرسل النبي لوط عليه السلام إليهم، وكانت رسالته في منع القوم من عملهم المشين، فلم يذكر القرآن الكريم في قصّة لوط عليه السلام أنّه دعا قومه إلى التوحيد، بل "...اقتصر على ما اختصّ به لوط، وهو المنع من الفاحشة، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد..." (الرازي، 25/ 49) فكانت دعوته عليه السلام إلى ترك المنكر استجابة كلامية لحدث إرساله بهذه المهمة.

وكانت شديدة، بعبارة أخرى استجابة انفعالية متمثّلةً بالغضب، فعلى الرغم من علمه عليه السلام بذنب القوم، لكنّه عندما يدخل فيهم يتفاجأ بتمكّن هذه الظاهرة في هذا المجتمع، ويُظهر تعجّبه في كلامه، قال تعالى: {**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ**} [العنكبوت: 28]، يؤكّد عليه السلام كون القوم أصحاب هذه البدعة بـ (إنّ) المشبّهة بالفعل، واللام الداخلة على خبر (إن)، والجملة "...إخبار بداعي الاستعجاب والإنكار..." (العلامة الطباطبائي، 2010م، 16/ 110)، ولفظة {الْفَاحِشَةَ} أدّت دور الستار على عمل القوم، وبتتمّة الكلام ينكشف المستور: {**أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ...**} [العنكبوت: 29]، أنكر عليه السلام عمل القوم بـ "...استفهام من أمر من الحري ألا يصدّقه سامع، ولا يقبله ذو لُبٍ؛ ولذا أكّد بالنون واللام..." (العلامة الطباطبائي، 2010م، 16/ 110) ، و (الإتيان) لغةً "...هُوَ مَجِيء بِسُهُولَة" (الكرباسي، د. ت، 1/ 5)، والإتيان في هذا السياق "...مخصص بذكران بني آدم. وقيل: مخصوص بالغرباء" (أبو حيان، 1420هـ، 8/ 183)، أي كان القوم يرتكبون منكرهم بكلّ سهولة، من دون رادع عقلي أو ديني أو خُلقي.

ويذكر لوط عليه السلام عمل القوم بصورة مجملة في لفظة (الفاحشة) لأهمّية الأمر، ثمّ يرفع القناع، ويفصّل القول في بيان ذنبهم (يُنظر: الشيرازي، 1992م، 5/ 99)، من جانب آخر فيه لفت انتباههم للفظة (الفاحشة) ، وما تعنيه من "...القَبِيحِ الظَّاهِرِ قُبْحُهُ" (الرازي، 25/ 49)، بعدها يذكر عملهم حتّى يُسجَّل في ذهنهم أنّ عملهم فاحشة، وتذكيرهم بقبح عملهم وفساده.

ويستمر النبي عليه السلام في الدعوة لترك المنكر، والرجوع إلى الفطرة، قال تعالى: {**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿80﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**} [الأعراف: 80 ـــ 81]، يستنكر عليه السلام عمل قومه بالاستفهام (يُنظر: عبد الكريم محمود: 2000م، 50) وقوله: {**أَتَأْتُونَ**}، "ولكون عملهم فاحشة مبتدعة لم يسبقهم إليها أحد

من العالمين استفهم عن ذلك بـــ (أن) المفيدة للتحقيق؛ فأفاد التعجّب والاستغراب..." (العلامة الطباطبائي، 2010م، 8/ 174)، كأنّه عليه السلام يقول: هل أنتم على علمٍ بما تفعلون؟!!

وقد اتخذ لوط عليه السلام من الاستفهام الإنكاري الذي يحمل دلالات التعجب والغضب والتوبيخ وسيلة لإيقاظ عقول القوم، وتشغيل فكرهم، فلابدّ من قوّة شديدة عقلانية لتنبيه القوم على ما هم عليه، فلا محلّ للهدوء في بداية الدعوة، كما كان يفعل الأنبياء عليهم السلام في دعوة أقوامهم إلى التوحيد في بادئ الأمر.

ويُكثِر لوط عليه السلام من الاستفهام، فـ "...الاستفهام عقيب ذكر المعايب أبلغ من الأمر بتركها..." (عبد القاهر الجرجاني، د. ت، 99)، ومع كل استفهام إنكاري توبيخٌ ولوم، وهي وسيلة تشجّع المُلام على الخوف (فاينمان، د. ت، 66)، أي ليس المقصود فقط إثارة تفكير القوم، بل وحتى إثارة انفعال الخوف في نفوسهم، بعبارة أخرى كان عمله عليه السلام ذا مردود نفسي وفكري، و "...ليس اللَّوْم دائماً أمراً سيّئاً. قد يكون بداية ردع حيف أو ظلم، أو قد يقرع ناقوس الخطر بشأن مسائل يجب عدم تجاوزها..." (فاينمان، 177).

زيادة على كلامه عليه السلام غير المستور المنسجم مع ما عليه القوم من إتيانهم المنكر بشكل علني، وذلك في ناديهم، فقد تكلّم عليه السلام بمستوى قومه كلاماً عقلانياً، وهذا ما جعل كلام النبي عليه السلام انفعالياً للمُخاطَب، أي يجب أن يُحدث انفعالاً عند المخاطب، لكن المُخاطَب لم يتحرّك، ولم يكن يملك جواباً، حالهم أشبه بالغارق الذي لا يفهم نداء مَن يُريد أن يُغيثه، وهذا دليل على سطحية مشاعرهم، فالأشخاص الذين يرتكبون الجرائم بالناس "...لديهم فهم سطحي للكلمات الانفعالية، والذي يتماشى مع سطحيّتهم العامة في عالم المشاعر" (جولمان، 2004م، 221)، فبرود قوم لوط أمام الكلام الانفعالي يدلّ على ضعف المشاعر الإيجابية، فلا يخجلون من عملهم، ولا يغضبون لاتهامهم بإتيان الفاحشة، ولا يخافون عاقبة أمرهم، ولم يندموا، وبغياب المشاعر الإيجابية غاب التفكير، وغاب التعقّل.

ولو كان للإيمان وجودٌ في أنفسهم لما اعتادوا على ارتكاب الذنب، ولو تفكّروا مليّاً لم يستمروا في قطع نسلهم، وبما أنّ "من الممكن لأيّ أحد أن يتدرَّب ليفعل أي شيء" (ويكس، د. ت ، 18)، وإن تطلّب الأمر جهاداً في حال غلبة الرغبة السلبية على العقل (يُنظر: الكاشاني، 1979م، 58)، كان بإمكان قوم لوط ترك عادتهم، والرجوع إلى السلوك الفطري لو تعقّلوا.

وللوط عليه السلام استجابة انفعالية أخرى، حينما أتاه قومه إلى داره، وفي ضيافته ملائكة في هيأة رجال، فقدوم القوم إلى داره حدث مثير، فبعد انقطاع مجيء الغرباء إلى المؤتفكات وممارسة المنكر في ناديهم، وكأنّه لم يسلم أحد من رجالهم إلا وابتليَ، حتى أصبح الشخص الجديد نادراً، فتأثر القوم بسماع خبر وجود غرباء عند لوط عليه السلام، فالندرة "...من أسلحة التأثير..." (روبرت، 274)، فتنافس القوم للفوز بالغرباء حبّاً بالمعصية، وخوفاً من فقدان الشخص النادر، فموقف القوم انفعالي أعمى خالص، أما استجابة لوط عليه السلام فكانت حركية وكلامية تمثّلت استجابته الحركية بمنعهم من الدخول، أمّا الكلامية فقد عرض بناته على القوم، ودعاهم إلى الحلال لإشباع الرغبة، وهو الموقف العقلاني الوحيد الذي يمكن اتخاذه في تلك الظروف، فلا ينفع النصح معهم، ولا التذكير بعقاب الله؛ إذ القوم يريدون شيئاً ملموساً في الحال، وهو عليه السلام لا يريد الضرر لضيوفه، فبصورة هادئة عرض بناته على القوم، لعلهم يرجعون، لكنّه عليه السلام أظهر غضبه وانفعاله باستفهام توبيخي، قال تعالى في حكاية الحدث: **{وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ}** [هود: 78]، هذا الغضب وُلِدَ بسبب خوف لوط عليه السلام على ضيفيه، فـ "...في كثير من الأحيان يكون هناك مجموعة من مشاعر الغضب المرتبطة بالخوف، فيختفي الغضب بمجرد أن تسمح للخوف بالرحيل ..." (ديفيد، 2016م، 147)، فبعد أن أعلن المَلَك بأنّهما ملائكة زال خوفه عليه السلام عليهما، وبذهاب الخوف سكن غضبه.

الخاتمة: بعد تحليل التعابير الخاصّة بدعوة الأنبياء أقوامهم تحليلاً لسانياً، ولمس الجوانب النفسية فيها، توصّلت الدراسة إلى نتائج كان أهمّها:

1- كان طابع لغة الأنبياء عليهم السلام في الدعوة إلى التوحيد هو الهدوء بما فيه من لين، كما أنّه دالّ على الإلزام بما فيه من أفعال أمرية (اعبدوا، ولا تعبدوا).

2- اختلفت دعوة لوط عليه السلام عن دعوة بقية الأنبياء؛ لاختلاف مقام قومه، فدعاهم إلى الفطرة الإنسانية السليمة.

3- استعمل النبي لوط عليه السلام أسلوب الاستفهام التقريري التعجّبي بكثرة محاولة منه لإيقاظ أنفس القوم من الغفلة عن طريق تحريك فكرهم بالأسئلة.

4- تباين الأسلوب اللغوي بين الكلام الودّي اللين والكلام الانفعالي، فالكلام اللين يظهر في النغمة الصوتية الرخوة واللينة، والنداء العاطفي، وما في الكلام من دلالة يُقصد بها تقريب السامع، في حين الكلام الانفعالي ظهر في النغمة الصوتية الشديدة وأسلوب الاستفهام الإنكاري.

قائمة المصادر والمراجع

–ابن فارس، أحمد بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395هـ)، (1979م). *مقاييس اللغة*. تح: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر.

–ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي (ت 774هـ). (1997م). *قصص الأنبياء*. تح: د. عبد الحي الفرماوي. (ط 5). القاهرة – مصر. دار الطباعة والنشر الإسلامي.

–أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ). (1420هـ). *البحر المحيط في التفسير*. تح: صدقي محمد جميل. بيروت. دار الفكر.

–أبو القاسم محمد بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ). (1403هـ). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*. (ط 3). بيروت. دار الكتاب العربي.

–أتكيسون، جين. (د. ت). *اللغويات النفسية*.

–الأحمدي، فهد عامر. *نظرية الفستق*. (ج 1، ط 3، 2017م)، (ج 2، ط 1، 2020م). دار الحضارة للنشر والتوزيع.

–إدوارد دي بونو. (2001م). *قبعات التفكير السّت*. ترجمة: خليل الجيوسي. مراجعة: د. محمد عبد الله البيلي. أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة. المجمع الثقافي.

–إمام، إبراهيم. *دراسات في الفن الصحفي*. مكتبة الأنجلو المصرية.

–أولمان، ستيفن. *دور الكلمة في اللغة*. ترجمة وتقديم وتعليق: د ، كمال بشر، مكتبة الشباب.

–پوير، پيتر. (2002م). *تدريب المشاعر (التوازن الانفعالي – ضبط النفس – التركيز – التأمل) دراسة نفسية*. ترجمة: د. إلياس حاجوج، دمشق. منشورات وزارة الثقافة – في الجمهورية العربية السورية.

–الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي (ت 471 أو 474هـ). *كتاب دلائل الإعجاز*. قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر. القاهرة. مكتبة الخانجي.

–جولمان، دانيال. (2004م). *ذكاء المشاعر*. ترجمة: د. هشام الحناوي، دار الهلا للنشر والتوزيع.

–حجازي. محمود فهمي. (د. ت). *علم اللغة العربية*. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

–حسان، تمام. (د. ت). *مناهج البحث في اللغة*. مكتبة الأنجلو المصرية.

–د. ديفيد ر. هاوكينز. (2016م). *السماح بالرحيل*. ترجمة: أرجوان بنت سليمان. (ط 1). مكتبة الروحي أحمد 129.

–د. روبرت ب. سيالديني. (2010م). *التأثير – علم نفس الإقناع*. ترجمة: د. سامر الأيوبي. (ط 1). مكتبة مؤمن قريش.

–الراجحي، عبده. 1995م. *علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية*. دار المعرفة الجامعية. إسكندرية.

–الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين خطيب الري (ت 606هـ). (1420هـ). *التفسير الكبير*. (ط 3). بيروت. دار إحياء التراث العربي.

–الراوندي، قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله (ت 573هـ). (1430هـ). *قصص الأنبياء (عليهم السلام)*. تح: عبد الحليم عوض الحلّي، (ط 1). قم – إيران. مكتبة العلّامة المجلسي.

–السعران، محمود. (1963م). *اللغة والمجتمع رأي ومنهج*. (ط 2). الإسكندرية.

–سوسير، فردينان دي. (د. ت). *علم اللغة العام*. ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطلبي، (ط 3). دار آفاق عربية. بغداد.

–الشعراوي، محمد متولي. (1997م). *الخواطر*. مطابع أخبار اليوم.

–الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم. (1992م). *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل*. (ط 1). بيروت – لبنان. مؤسسة البعثة.

–الطباطبائي، محمد حسين. (2010م). *الميزان في تفسير القرآن*. (ط 1). بيروت – لبنان. مطبوعات دار الأندلس.

–الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (ت 310هـ). (2000م). *جامع البيان في تأويل القرآن*. تح: أحمد محمد شاكر. (ط 1). مؤسسة الرسالة.

–طه، فرج عبد القادر، وآخرون. (د، ت). *معجم علم النفس والتحليل النفسي*. ط 1. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

–العصيلي، د. عبد العزيز بن إبراهيم. (2006م). *علم اللغة النفسي*. المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي.

–عطية، نوال محمد. (1995م). *علم النفس اللغوي*. (ط 3). المكتبة الأكاديمية.

–علي، موسى محمد. *التوحيد مفتاح دعوة الرسل*. الناشر: محمد نجيب الصابوني.

–عمر، أحمد مختار. (1998م). *أسس علم اللغة*. عالم الكتب. (ط 8).

–فاينمان، ستيفَن. *صناعة اللوم*. ترجمة: ماهر الجنيدي، مراجعة: فخري صالح.

–الكاشاني، الفيض. (1979م). *الحقايق في محاسن الأخلاق، قرة العيون في المعارف والحكم*. (ط 2). بيروت – لبنان. دار الكتاب العربي.

–الكرباسي، محمد جعفر الشيخ إبراهيم. (د. ت). *الأنباء بما في كلمات القرآن من أضواء*. النجف. مطبعة الآداب.

–الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريمي ، أبو البقاء الحنفي (ت 1094هـ). *الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية*. تح: عدنان درويش، و محمد المصري، بيروت. مؤسسة الرسالة.

–نجاتي، محمد عثمان. (2001م). *القرآن وعلم النفس*. (ط 7). القاهرة – مصر. دار الشروق.

–الوافي، علي عبد الواحد. (2004م). *علم اللغة*. (ط 9). إشراف عام: داليا محمد إبراهيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

–الوردي، علي. (1997م). *خوارق اللاشعور*. (ط 2). لندن. دار الورّاق للنشر.

–ويكس، ماركوس. *موسوعة علم النفس*. المستشار: د. جون مايلدهول المستقبل الرقمي.

–يوسف، عبد الكريم محمود. (2000م). *أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم*. (ط 1). مطبعة الشام.

البحوث المنشورة

–العصيلي، عبد العزيز بن إبراهيم. (1419هـ). *النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية* (بحث منشور). مجلة جامعة الإمام. العدد 22.